

أثر البعد الثقافي في تشكيل مضامين الشعر الشعبي الجزائري شعر المقاومة نموذجاً

أ.د. مصطفى أوشاطر ط/د. أحمد سعيداني
جامعة نلمسان

الملخص :

تسعى هذه المقالة إلى إبراز أهمية البعد الثقافي في تشكيل مضامين الشعر الشعبي الجزائري ، خلال الفترة الزمنية الممتدة من الثلث الأول من القرن التاسع عشر و حتى الاستقلال سنة 1962 ، و هي الفترة التي لعب فيها الشعر الشعبي الجزائري على وجه العموم ، و شعر المقاومة على وجه التحديد ، دوراً أساسياً في رفض الاحتلال الفرنسي و التمرد عليه ، كما لعب أيضاً دوراً ريادياً في تعبئة الجماهير و توجيههم نحو المحافظة على وجودهم الحضاري ، و تنبيههم بخطر المشروع الثقافي الفرنسي القائم على الثلاثية المدمرة و المتمثلة في التنصير و الفرنسة و الإدماج .

الكلمات المفتاحية : ثقافة - مقاومة - شعر شعبي

مقدمة:

لقد أدرك الشعب الجزائري و هو يقاوم الاحتلال الفرنسي بأن الاعتماد على السلاح لا يكفي لتحقيق أهداف الأمة في الحرية و الكرامة و الاستقلال ، و تنبه إلى أن تحرير الأرض بدون تحرير الإنسان عقلاً وفكراً و ثقافة وعاطفة وذوقاً لن يبعد الخطر الذي استهدف عناصر الهوية الوطنية لتكييفها مع الأهداف الاستعمارية ، وهذا ما يفسر إقبال الشعراء الشعبيين على الكلمة لإبداع قصائد شعبية نضالية ، لتأجيج المشاعر و شحذ الهمم و غرس الروح الوطنية و الدعوة للتمسك بالقيم الدينية لمواجهة المحتل .

فإذا كانت المقاومة المسلحة بطبيعتها تهدأ حيناً و تنفجر حيناً آخر فإن الشعر الشعبي ظل و منذ دخول الاستعمار الفرنسي أرض الجزائر سنة 1830 ، سلاحاً لا يهدأ ، يحرض الجماهير ، وينور العقول ، و يرسم الطريق و يهاجم المرتد ، و يذم الخائن ، و يسجل النضالات ، و يخلد الأبطال ، و يتغنى بالانتصارات و يفتخر بثقافة الأجداد ، و بقي كذلك حتى نالت استقلالها و سيادتها سنة 1962 .

و لم يكتف الشعر الشعبي بدوره في التحريض على المقاومة ، بل ساهم أيضاً في إعادة تشكيل الإنسان الجزائري و توعيته عن طريق إيقاظ مكوناته الثقافية التي تتناقض شكلاً و مضموناً مع مكونات ثقافة العدو المحتل ، لقد كانت الكلمة ، و من ورائها الشعر الشعبي بمثابة الضربة القاضية التي أفشلت كل المخططات الاستعمارية المختلفة التي استخدمها لتحقيق أغراضه و أطماعه.

و لتقريب أثر البعد الثقافي في تشكيل مضامين الشعر الشعبي الجزائري فسيكون الحديث عن هذا الموضوع في ثلاثة محاور على النحو الآتي :

المحور الأول : مفهوم الثقافة و علاقتها بالمقاومة

المحور الثاني : المشروع الثقافي للاحتلال الفرنسي للجزائر

المحور الثالث : أثر البعد الثقافي في تشكيل مضامين الشعر الشعبي الجزائري

المحور الأول : مفهوم الثقافة و علاقتها بالمقاومة

أ - المفهوم اللغوي لكلمة " ثقافة "

الثقافة لغة هي من الفعل ثقّف وهي في اللغة العربية بمعنى: أسرع في أخذ الشيء وأدركه، وثقّف بمعنى أدب وربّي وعلم، وفي لسان العرب لابن منظور، نجد أن الثقافة تستلزم الفطنة ودقة الفهم، كما نجد فيه أن ثقّف بمعنى ظفر به وألقى القبض عليه، والثقاف هو الشيء الذي تُسوّى به الرّماح¹.

وهكذا نلاحظ أن معنى "الثقافة" في لسان العرب هو ما يدل على: الحذق والذكاء وسرعة الفهم، فالثقافة من هذا المنظور هي خصلة عقلية وليست مفهوما مجردا. كما أن التثقيف الذي يعني التقويم والتسوية، هو خاص بالرمح و العود ، و لم يعثر على ما يفيد امتداد هذا المعنى-معنى تثقيف الرمح -إلى الفكر أو الذهن. كل ذلك يدل على أن كلمة "ثقافة" لم تكن في أصلها العربي مصطلحا لشيء من الأشياء الفكرية ، ولا مفهوما يتمتع بقوة المفهوم ، أي بدلالة معينة محددة ، عامة ومجردة.

و من هنا يتأكد ذلك الرأي القائل: إن كلمة "ثقافة" في الاستعمال العربي الحديث ، كلمة مولدة ، اشتقت للدلالة على المعنى المجازي للكلمة الفرنسية culture . وهو اشتقاق مقبول و صائب ، خصوصا إذا لاحظنا ذلك التقارب بين المعنى الأصلي لكلمة الحذق والتسوية ، والمعنى الجديد الذي صيغت للدلالة عليه.

يقول دنيس كوش : " من المبرر أن نتوقف بصفة خاصة مع المثال الفرنسي لاستخدام " ثقافة " ، إذ يبدو أكيدا أن التطور الدلالي الحاسم الخاص بالكلمة و الذي سمح ، لاحقا ، بابتداع المفهوم حدث داخل اللسان الفرنسي ، في قرن الأنوار ، قبل أن ينتشر بواسطة الاقتراض اللساني " ²

إن كلمة culture (الفرنسية) تعني في الأصل الزراعة والفلاحة . وقد تطور مدلولها، ابتداء من القرن السادس عشر، لتفيد معنى مجازيا هو تنمية بعض القدرات العقلية بالتدريب والمران ، ثم لتدل بعد ذلك على مجموع المعارف المكتسبة التي تمكن من تنمية روح النقد والقدرة على الحكم .

لقد نقلت الكلمة الفرنسية إذن: من زراعة الأرض واستغلال خيراتها إلى تدريب الفكر وجني ثمراته، و من "نتاج الأرض" إلى "نتاج الفكر". و سرعان ما وقع التأكيد على أن مدلولها في ميدان الفكر يجب أن ينصرف إلى فعل الإنتاج أكثر من الإلحاح على الإنتاج نفسه ، " بهذا المعنى تم إدراجها في قاموس الأكاديمية الفرنسية ، و هي في أغلب الأحيان متبوعة بمضاف يدل على موضوع الفعل ، هكذا كان يقال " ثقافة الفنون " و " ثقافة الآداب " و " ثقافة العلوم " كما لو كان ضروريا أن يحدد الشيء المعنوي به تثقيفا " ³.

فالثقافة إذن ، لفظ عامّ و لتخصيصه في مجال ما وتحديد ماهيته يضاف إلى علم أو فنّ خاص أو هوية أو صفة كأن يقال : الثقافة الرياضية ، والثقافة الأدبية ، والثقافة العربية ، و ثقافة المقاومة ...

ب- المفهوم الاصطلاحي لكلمة ثقافة :

يعود الفضل إلى عالم الأنثروبولوجيا البريطاني إدوارد برنت تايلور (1832 - 1917) الذي كان أول من اقترح للثقافة تعريفا إثنوغرافيا ، يعطي لها دلالة واسعة و يجمع بين مدلولها الحسي والفكري ، يقول في كتابه

الثقافة البدائية (1871 م) : " هي هذا الكل المركب الذي يشمل المعرفة و المعتقدات و الفن و الأخلاق، والقانون والعادات وكل القدرات والعادات الأخرى التي يكتسبها الإنسان بوصفه عضوا في المجتمع " ⁴ و على بساطة هذا التعريف و وضوحه، إلا أن صاحبه أراد أن يكون تعريفا وصفيا وموضوعيا خالصا ، لا تعريفا معياريا ، أو فلسفيا كما كان عليه الأمر في السابق .

فالثقافة من هذا المنظور هي نشاط إنساني متصل العناصر ، تعبر عن كلية حياة الإنسان ، و تتميز ببعدها الاجتماعي ، و من أهم خصائصها أنها مكتسبة و إنسانية ، لا تثبت على حال و لا تورث بيولوجيا ، كما أنها ليست البناء الفكري وحسب ، بل إنها أيضا السلوك الفردي والمجتمعي وما يرتبط بهما من تقاليد وأعراف وأخلاق. وقد يضاف إلى ذلك كله أدوات العمل والإنتاج.

والثقافة بهذا المعنى لا توجد إلا في المجتمع ، فلا يوجد مجتمع بدون ثقافة و لا ثقافة بدون مجتمع ، فكل مجتمع بشري له ثقافته الخاصة المميزة له عن المجتمعات الأخرى ، فمكونات الثقافة في مجتمع ما ، تختلف عن مكوناتها في مجتمع آخر ، كما أن الثقافة في المجتمع الواحد تختلف في فترة زمنية عنها في فترة زمنية أخرى ، فالظروف و الأحوال التي تطرأ على مجتمع ما كثيرا ما تدفع الناس إلي أن يعدلوا من أفكارهم ومعتقداتهم و وسائل معيشتهم وأساليبهم العلمية وأنواع المعرفة لديهم ونظمهم السياسية والاقتصادية ويعني هذا بالطبع اختلاف عناصر الثقافة وتغير معالمها.

و على أية حال ، " فحين يتكلم علماء الفولكلور و الأنثروبولوجيا عن ثقافة شعب من الشعوب فإنهم يقصدون على العموم طرق المعيشة ، و أنماط السلوك ، و قواعد العرف و التقاليد ، و الفنون التكنولوجية السائدة و التي يكتسبها الأعضاء و يلتزمون بها في سلوكهم و حياتهم " ⁵

هذه هي الثقافة التي استقرت عليها الدراسات الاجتماعية و الإنسانية المعاصرة ، وأصبحت مصطلحا علميا يعود إليه كل من يريد البحث في ثقافات الشعوب وخصائصها المميزة.

و بعد هذا العرض ، سنتناول بإيجاز علاقة الثقافة بالمقاومة على النحو الآتي .

قبل تحديد هذه العلاقة، نبدأ أولا ب:

أ - المفهوم اللغوي لكلمة مقاومة :

فإذا أرجعنا كلمة مقاومة إلى أصلها الثلاثي : (ق ، و ، م) و بحثنا عن معانيها في المعاجم اللغوية العربية ، لوجدنا أنها تدل على معنيين هما :

الأول : نستخلصه من الفعل قام يقوم قياما و قواما : فالقيام هو ضد الجلوس أي الانتصاب و العزم ، أما القوام : فهو نظام الأمر و عماده وملاكه الذي يقوم به أو هو: العدل والاعتدال. وكل هذه المعاني تدور حول الأخذ بالأمر وتحقيقه بعزم ، وأدائه بعدل واعتدال ، وهي كلها معاني حميدة⁶.

الثاني : نستخلصه من الفعل قاوم يقاوم مقاومة ، و تقاوموا في الحرب بمعنى قام بعضهم لبعض و تحمل المقاومة هنا معنى : القتال في الحرب ، و نبذ الظلم و رفض المحتل⁷.

فمن الناحية اللغوية ، يمكننا القول بأن المقاومة هي قيام وانتصاب لدفع العدوان وإقامة العدل والاعتدال ، و مواجهة الآخر لإثبات الذات منعا للظلم و رفضا للاستعباد .

ب- المفهوم الاصطلاحي لكلمة مقاومة .

أخذت كلمة المقاومة معناها الاصطلاحي من المعنى اللغوي ، فهي الفعل الذي يعبر به الإنسان عن وجوده ، والطموح الذي يحقق للإنسان حضوره كفرد حر و مستقل و فاعل في المجتمع الذي يعيش فيه ، هي كما عبرت عنها الباحثة فادية المليح حلواني: "مبدأ حياتي أصيل في عقل و وجدان الإنسان ، و هي بالتالي: مبدأ قائم على تعشق الحرية وإثبات الحضور و الفاعلية و رد العدوان ، و التعامل مع الآخر بإخاء و ندية"⁸ لا شك في أن الثقافة والمقاومة كما تم تحديدهما هما متلازمتان ، لا تستغني إحداهما عن الأخرى ، فالأولى تستمد أهدافها و برامجها من الثانية ، و الثانية تشكل أداة للأولى لتحقيق أهدافها.

فالثقافة هي المسؤولة عن تنشئة الأجيال و نقل التراث الثقافي للأجيال، و تسعى في النهاية لتشكيل الشخصية الثقافية الوطنية وفق معتقدات و قيم متفق عليها من قبل المجتمع الذي تعمل فيه، و المقاومة بما تمثله من دفاع عن الذات و بحث عن العدالة و الأمان، هي الأداة الفعالة لتحقيق هذه الغاية النبيلة.

ومن هذا المنظور تتحدد علاقة المقاومة بالثقافة التي تمنح الفرد وعيا هو بمنزلة التحصين ضد ما يستهدف مقدسات الأمة و حضارتها ، و يؤكد ذلك إدوارد سعيد بقوله : " إن المقاومة شكل من أشكال الذاكرة ضد النسيان و الثقافة تمثل أداة المقاومة ضد محاولات الطمس و الإزالة و الإقصاء " ⁹

و بقدر ما يشير مضمون هذا القول إلى ثقافة المقاومة باعتبارها حقا طبيعيا للأفراد والجماعات و الدول في الدفاع عن أنفسهم ، فهو يشير أيضا إلى المقاومة الثقافية باعتبارها: " ثقافة بديلة ومضادة ، لثقافة الهيمنة والاستعباد وانتهاك حقوق الإنسان وحریات الشعوب، بمعنى أنها ثقافة الحريات والعدالة وكرامة الإنسان والأوطان، وقضية وجودية ترتبط بكيونة الإنسان المقاوم ، وبمدى معرفته الواعية للذات وللتحديات التي تواجهه، وبامتلاكه لرؤية تتناسب مع أهداف هذه المقاومة، واليقين بجدواها " ¹⁰.

فالحديث عن ثقافة المقاومة لا يستقيم دون العودة إلى الذات ، وهي الفكرة الأساسية التي انطلق منها المفكر الجزائري مالك بن نبي في سياق مساهمته لتطوير مفهوم ثقافة المقاومة ، حيث يرى بأن العودة إلى الذات لا تتحقق إلا من خلال التفاعل بين عالم الأشخاص و عالم الأفكار و عالم الأشياء . و تتحقق هذه العودة بإدراك الأمة للفرق بين الحضور والوجود ، فنحن أمة موجودة و لكن ليست حاضرة ، فالحضور يعني توفر مجتمع وثقافة وعلاقات إنتاج .

إن تحقيق العودة إلى الذات يكسبها سمة الثورية ، و الذي يؤدي بالنتيجة إلى نشوء مقاومة ثقافية متسلحة بالوعي تمارس وظيفتها بمقاومة الاستعمار المباشر و غير المباشر .

المحور الثاني : المشروع الثقافي للاحتلال الفرنسي

كما لا يخفى على أحد ، فلقد تعرضت الجزائر لحرب موازية سارت جنبا إلى جنب مع العمليات العسكرية الدامية ، تمثلت " في الهجوم الكاسح الذي استهدف مقومات الشخصية الوطنية الجزائرية و مكونات هويتها من دين و لغة و ثقافة و تاريخ ، و التي تعرضت جميعا لحرب ضارية بهدف محو آثارها ، و تجفيف منابعها ، و طمس معالمها لتحطيم الكيان الثقافي ، و تنقية الأجواء ، و تمهيد السبل لمخطط الفرنسية " ¹¹

إن الحرب الموازية التي رافقت العمليات العسكرية ، هي التي سمحت لفرنسا بأن تجعل من الثقافة مظهرا من مظاهر الصراع بينها وبين الجزائر ، وسعت إلى نشر مفاهيمها الفكرية و الفلسفية و طبيعة حياتها المادية ، على اعتبار أن من ملك الثقافة ملك العقول ومن ملك العقول ملك العواطف و من ملك العواطف حقق الأمن و الاستقرار ، فالحرب التي شنتها فرنسا في الجزائر و الحملة التي وجهتها إليها لم يكن الهدف منها تأديب الداي أو الثأر للكرامة كما يزعم المؤرخون الفرنسيون ، بل هي حرب ثقافية بكل ما تحمله الكلمة من معنى ، استهدفت الأرض و الإنسان و الثقافة .

إن الصيحة التي كانت هي الشعار لدى الحكام الذين توافدوا على تنفيذ خطة الاحتلال سواء أكانوا من العسكريين أم من الساسة ، تمثلت في الخطة المتبعة ، الهادفة بشكل جلي و واضح إلى إدماج الجزائر إدماجا كليا في بوتقة الثقافة الفرنسية لتصبح قطعة لا تتجزأ من التراب الفرنسي أرضا و لغة و ثقافة و دينا ، هذا ما صرح به أحد الضباط الفرنسيين في هذا المجال بقوله : " إن إيالة الجزائر لن تكون حقيقة من الممتلكات الفرنسية إلا بعد أن تصبح لغتنا لغة قومية فيها ، و حتى تتأقلم فيها الفنون و العلوم التي عليها مجد بلادنا... و المعجزة التي ينبغي تحقيقها هي إحلال اللغة الفرنسية محل اللغة العربية تدريجيا ، و متى كانت اللغة الفرنسية لغة السلطة و الإدارة فإنها سوف لا تلبث أن تنتشر بين الأهالي ، و لا سيما إذا لقيت مدارسنا إقبالا من الجيل الجديد " ¹²

و تأكدت هذه الصيحة أيضا مع لوفيفو سكرتير المارشال بيجو سنة 1938 لدى إعلانه : " إن العرب لا يطيعون فرنسا إلا إذا أصبحوا فرنسيين ، و لن يصبحوا فرنسيين إلا إذا أصبحوا مسيحيين " ¹³ .

إن المتمعن في مثل هذه التصريحات و الإعلانات و غيرها من الأقوال التي تصب في نفس السياق ، يدرك بأن سياسة فرنسا في سبيل تحقيقها لهذه الغاية ، ركزت على اتجاهين بارزين هما:

1 - فرنسة التعليم و تنصير الشعب: و سعى لتنفيذ هذه السياسة بابتكار كل الأساليب و التدابير الناجعة لمحاربة اللغة العربية و القضاء على الدين الإسلامي ¹⁴ .

لقد عبر التلي بن الشيخ عن موقف الاحتلال الفرنسي من اللغة العربية قائلا: " كان موقفا عدائيا ، بل عنصريا ، فحارب اللغة العربية بكل الوسائل ومنع تعلمها و تعليمها ، بل أصبح تعليمها جريمة يعاقب عليها القانون، و يضاف إلى هذا محاولة إظهارها في صورة بدائية لا تصلح لأن تكون لغة علم و حضارة " ¹⁵

2 - سياسة التفرقة بين الأهالي على أساس اللهجات و الأعراف الوهمية : و كان الرهان على هذا العامل هو التفرقة لتفتيت الوحدة الوطنية ، حيث سعت السلطات الفرنسية : " إلى ترويح الفكرة البربرية والدعوة لخلق كيان بربري مفصول عن جسم الشعب الجزائري " ¹⁶

و في هذا السياق ، لا بد من الإشارة إلى الدراسات الاستشراقية التي وظفت بإتقان في أبحاثها و دراساتهما أطروحة التقسيم العرقي للسكان ، و خصوصا التقسيم الذي يستند على ثنائية عرب - بربر ، التي ركزت في تحليلها على بنية القبيلة الأمازيغية من حيث طبيعة العلاقات الرابطة بين مكوناتها ، و من حيث طبيعة تشكل الزعامات السياسية ، وكذلك من حيث طبيعة النسق القيمي الذي يؤطرها ، بالإضافة إلى مجموعة من

القضايا السوسولوجية والأنثروبولوجية التي لها علاقة مباشرة بتسهيل مهمة السيطرة العسكرية على البلاد والعباد.

لقد كان الاعتماد في هذه الدراسات على المستشرقين الفرنسيين الذين استوطنوا الجزائر بعد احتلالها، نظرا لكونهم أكثر أهلية من غيرهم للقيام بمهمة البحث في تاريخ الشعوب المغاربية و في معتقداتهم و عاداتهم و طبائهم ، فإدمون دوتي و وليام مارسى و جاك بيرك و غيرهم قاموا بدراسات سوسولوجية و مونوغرافية ، استفاد منها المستعمر الفرنسي الكثير .

و كنتيجة لهذا الوضع ، لم يستسلم الشعب الجزائري و لم يبق مكتوف الأيدي أمام هذه السياسة الاستعمارية الهادفة إلى سلب الشعب الجزائري أهم مقومات شخصيته العربية والإسلامية، وراح يقاوم ذلك بكل ما أوتي من قوة ، فاستعمل السلاح مرة و الكلمة مرة أخرى رغبة في التحرر و الانعتاق .

كان من الطبيعي أن تصطدم سياسة الفرنسة و التنصير و التفرقة بمقاومة تحول دون تحقيق الأهداف المرجوة و تقف بالمرصاد أمام السلطات الفرنسية في حملتها لطمس مكونات الشخصية الوطنية، و في هذا يقول المؤرخ الجزائري عبدالرحمن الجيلالي في معرض حديثه عن ردة فعل الشعب الجزائري تجاه هذا الوضع : " فتحركت الأنفة الوطنية والغيرة الدينية ، مستهضة الهمم و محرضة على الجهاد و القتال " ¹⁷ .

ظهرت إذن المقاومة الوطنية لتمارس نشاطها سرا في بعض الأحيان و علنا في أحيان أخرى و انطلقت الكلمة الشفوية في تنوير الشعب الجزائري و تنبيهه بأهمية المقاومة باعتبارها السبيل الوحيد في الدفاع عن الهوية ، و الأداة الفعالة في مواجهة هذا العدوان ، فالمقاومة كما استقر مفهومها لدى جل الباحثين هي فعل و سلوك و إرادة تسعى الشعوب من خلالها إلى صيانة الحياة الكريمة و حماية الأوطان و الدفاع عن روح الأمة و ثقافتها .

و تكفي الإشارة في هذا المجال إلى ما أشارت إليه المؤرخة الفرنسية إفون تورين (Turin Yvonne) ، في معرض حديثها عن مقاومة الشعب الجزائري لسياسة الفرنسة قولها : " و بدأ الصراع يوم بدأ المحتل يفرض لسانه و تفكيره و أسلوبه في الحياة مستعملا المدرسة و المستشفى ، المعلم و الطبيب ... و رد المسلمون الهدية المسمومة لصاحبها الذي قضى حوالي عشرين سنة (1830 - 1850) يحدث المدارس فلا يجد لها تلاميذ ، وينشئ المستشفيات فلا يتردد عليها المرضى ، و تعددت الصعوبات في وجه المحتل وكثرت وأصبح الدين الإسلامي كالإسمنت المسلح يحمي من التفكك و الاندماج " ¹⁸

يبدو من خلال هذا الاعتراف بأن الشعب الجزائري كان على وعي تام بما يجب القيام به لمواجهة سياسة الفرنسة ، فالجزائريون كما أشار المؤرخ الجزائري أبو القاسم سعد الله " لم يقبلوا بالهزيمة و لم يستسلموا ، و استمروا في مقاومتهم ، فالثورات المسلحة و الجمعيات الدينية و الأدب الشعبي لم تكن إلا بعض مظاهر المقاومة المتواصلة ضد حكم مفروض " ¹⁹

و صفوة القول فإن المقاومة التي ولدت من رحم الشعب الجزائري ، كانت بمثابة استجابة حقيقية لنداء الواقع الذي أراد الاستعمار فرضه على المجتمع الجزائري و الذي كانت له نتائج وخيمة على الصعيد الثقافي، مست مقدسات الأمة المتمثلة في الدين واللغة والوطن والتاريخ .

المحور الثالث : أثر البعد الثقافي في تشكيل مضامين الشعر الشعبي الجزائري :

يعتبر الشعر بشكل عام و الشعبي منه بشكل خاص من أقرب الفنون القولية إلى النفوس البشرية لما يمتلكه من إمكانات كبيرة في التعبير عن مكنونات كافة أفراد المجتمع والبوح عن أحاسيسهم و الكشف عن دقائق و تفاصيل حياتهم و القدرة على تصوير حالاتهم النفسية و الاجتماعية و السياسية و الثقافية بشكل مختزل و دقيق و واسع ، بالإضافة إلى قدرته على تجسيد فكرهم و فلسفتهم في الحياة .
و من الحقائق التي لا تقبل الشك، هو أن الشعر هوية قبل أن يكون صناعة وهواية قبل أن يكون حرفة و أنه حاجة ضرورية و ليس لغوا من القول .

ففي ظل التدهور الثقافي الذي جاء انعكاسا للسياسة الاستعمارية من جهة ، وحاجة الشعب الجزائري إلى التعبير عن مواقفه من جهة أخرى ، ظهر الشعر الشعبي الجزائري بصفة عامة و شعر المقاومة بصفة خاصة كأداة نضالية ، ليكون بذلك أحد الأسلحة الفتاكة التي استهدفت المستعمر الذي سعى جاهدا و بكل الطرق لطمس الهوية الثقافية الجزائرية .

فالقصيدة الشعبية التي تأخذ تسمية شعر المقاومة، هي تلك القصيدة التي انحصر موضوعها في توعية الأفراد و تمجيد المقاومة و التحريض على الجهاد و الدعوة لنصرة الهوية الوطنية و الاعتزاز بها و التي من خلالها وجد الحس الوطني الشعبي صداه لرفض ثقافة المحتل .

و كنموذج عنها ، هذه القصيدة التي تحمل عنوان " احتلال الجزائر " ²⁰ للشاعر عبد القادر الوهراني التي شاع تصنيفها بين الباحثين في الأدب الشعبي ضمن ما يعرف بـ "رثاء المدن"، وهي قصيدة طويلة ، استهلها بابتهالات دينية طويلة تعكس أثر البعد الثقافي في نظم القصيدة، يقول:

بالحمد نبدا ذا القصة و نعيدها *

استغفروا و توبوا يا مسلمين

انوصي على صلاة أحمد يا مسلمين *

تفك من القصاص و نصب الوزنين

هو ايفك من جهنم و أحوالها *

سيد الرحال شفيح المذنبين

سيد الأنس و الجن و سيد أسيادنا *

محمد التهامي مصباح الدين

صلوا عليه قد الدنيا باتمامها *

صلوا عليه ألف يا مذنبين

كثروا بالصلاة على الأمجد طه *

يوم الخميس و الجمعة و الاثنين

في ليلة لقيير كي ايموت يصيبها *

ينال النعائم و حور العين

الفائزون راهم نالوا بأسبابها *

باصلاة سيد الأمة جد الحسنين

صلوا عليه قد الدنيا و امجادهها *

ما دمنا انشوفوا و احنا حيين

توبوا استغفروا للمولى *

هذا آخر الزمان ادركنا

فيه لمحايين و كل بلا *

منا الفوق ما كان الهنا

التعب لطم كل قبيلة *

ما جا إلا زمان الفتنا

من عاش حالته لا حالا *

واللي مات ذاك اتها

هذا الكلام للعقلا *

والعارفين هذا المعنى

أمن درى يا فضلا *

حسراه وين هي مزغنا

ولات للنصارى شنين الدين

و بعد هذا الاستهلال ، شرع في رواية قصة الاحتلال ، ومما جاء في القصيدة :

والدهر ينقلب ويولي في الحين

الأيام يا اخواني تتبدل ساعاتها *

الأجناس تخافها في البر و بحرين

بعد كان سنجاق البهجة ووجاقها *

واعطاوها أهل الله الصالحين

أمنين راد ربي ووفى من جالها *

لا هي ميات مركب لاهي ميتين

الفرانسييس حرك ليها وخذاها *

كي جا من البحر بجنود قويين

بسفاينه يفرص البحر قبالها *

الروم جاو للبهجة مشتدين

غاب الحساب وادرك تلف حسابها *

راني على الجزائر يا ناس حزين

و مما ذكره في مجال التحريض على المقاومة و التصدي للعدوان :

موت الجهاد خير من الحيين

هنا الناس تظهر و تبان اخبارها *

أبواب النعيم للأمة مفتوحين

حور العين راها تزغرت بأصواتها *

و الصبر لا تكونو شي خافين

الموت لازمتنا و احنا زادهها *

ظل الطراد بالحد و الاثنين²¹

و مما اختتم به القصيدة هذا الدعاء الذي خصه للوطن أولاً ثم لناظم القصيدة ثانياً ولوالديه ثالثاً ثم لمشايخه و كل الغائبين و الحاضرين أخيراً ، يقول فيه :

يا خالق لعباد نتوسل بطه*
رب و جيب ليها سلطان حنين
و يعود في السراية هو سلطانها*
يحكم بالشرع و الحق المبين
بجاه لكتوب و جميع من قراوها*
و الساجدين لله و الراكعين
من بعد ألف يا الفاهمين تورخناها*
والواو ياك تكونوا فاطنين
يا غافر الذنب اغفر لي قالها*
واغفر ذنوب عبد القادر مسكين
ماذا ما المعاصي و السية دارها*
تعفو عليه يا رب العالمين
و الغائبين وأهلي و الحاضرين
تجعل مقامهم فب الجنة و جناتها*
بجاه سيد الأمة جد الحسين
راني على الجزائر يا ناس احزين

فلم يجد الشاعر الشعبي عبد القادر الوهراني في هذا النموذج سوى التعبير عن ارتباطه المتين بالدين و اللغة و الوطن و التاريخ ، لذلك جاء نظمه عبارة عن رسالة مضمونها يعكس صورة صادقة عن مكوناته الثقافية ذات البعد العربي و الإسلامي ، فهو يرى أن غزو الجزائر ، إنما هو : " غزو للإسلام بالدرجة الأولى ، ذلك أن الإسلام في مفهوم الطبقات الشعبية هو المقياس الذي يحدد هوية الإنسان الجزائري و ليس مجرد انتماء إلى الوطن ، و من هنا كان الجهاد في سبيل الله و الدفاع عن الإسلام ، هو الهدف الأسمى من النضال"²²

فلقد جسد الشاعر في قصيدته المعاني الإسلامية التي تعكس ملامح الثقافة الجزائرية في المواضيع الحاسمة ، " فالشاعر الشعبي حين يتمسك بالإسلام ، و يعتز بالماضي و يفتخر بانتصارات المسلمين، فقد كان دوماً يربط ذلك الماضي المشرق بالحاضر ، و يتوق إلى رؤية عظمة الإسلام و عزة المسلمين تتحقق من جديد في هذا الوطن"²³

تصور القصيدة في عمومها ما شاهده الشاعر من المآسي التي حركت مشاعره وأطلقت لسانه للتعبير عن هول الفاجعة بكلمات حزينة و معاني هادفة و عواطف صادقة في رسم صور الدمار الذي حل بمدينة الجزائر ، كما تتوه بمقاومة الأهالي للمحتل بكل شجاعة و شهامة ، دون أن تتجاهل الأحزان التي عمت بالمدينة جزاء الممارسات الوحشية الفظيعة في حق الأهالي الأبرياء و دون أن تنسى حضور المبادئ الروحية في الحياة الاجتماعية .

تعتبر القصيدة من الناحية التاريخية بمثابة وثيقة متميزة في مجالها حيث يقول عنها الدكتور عبد المالك مرتاض: " ومما نقول في هذه القصيدة الشعبية العجيبة التي لا نجد لها نظيراً فيما أطلعنا عليه من شعر المقاومة شعبياً وفصيحا معا "²⁴

لم تلعبت هذه القصيدة دوراً تعبويّاً، وتحريضياً ، في مقاومة الاحتلال البغيض فحسب، بل أفرزت جملة من مظاهر الثقافة الجزائرية بكل ما تحمله من قيم فكرية و دينية وأنماط معيشية ، و هذا ما سمح لها بالانتشار

بين الجماهير، بسرعة النار في الهشيم ، حيث تداولها الجميع في مجالسهم الخاصة ، والعامّة بشغف ، وتلقوها بلهف ، و أصبحت من القصائد الخالدة .

وما تطلعت إليه هذه القصيدة من دور و ما سجلته من أحداث و ما أثارتها من حماس، يمكن تعميمه على كل الشعر الشعبي الجزائري ، الذي آمن بقضية الدفاع عن الوطن وساهم مساهمة فعالة في تكريسها و غرسها في الأجيال ، فهو الشعر الذي " رصد مختلف الأحداث التي شهدتها البلاد خلال فترات تاريخية مختلفة ، و سجل ذلك في ذاكرة الشعب ينقلها الأفراد من جيل إلى جيل " ²⁵

يتضح جليا من خلال الأبيات الشعرية التي تم الاستشهاد بها ، بأن للشاعر عبد القادر الوهراني حسا وطنيا ، و ثقافة عربية إسلامية حاول من خلالها تعزيز الهوية الوطنية بكل مكوناتها في نفوس الأفراد ، بغية إعداد جيل جديد يتحصن بالإسلام و يتمسك بالعروبة ، و حب الوطن ، و هذه هي الأبعاد الثقافية التي تحفظ كيان المجتمع و تمكن أفرادها من عدم الذوبان في ثقافة الآخر الأجنبي.

و كمثال عن قصيدة عبد القادر الوهراني ، و التي يمكن الاستشهاد بها في هذا المجال ، هذه القصيدة الشعبية التي تحمل عنوان : " في بلادك و القهر عليك غزير " ²⁶، و التي نأخذ منها هذه الأبيات التي تعكس من جهة الوضعية السياسية و الاجتماعية والثقافية المزرية التي كان يعاني من ويلاتها الشعب الجزائري أيام الاحتلال الفرنسي وتعرض على الجهاد بالكلمة الهادفة و الواعية و المؤثرة و الملتزمة من جهة أخرى:

و انت ما فايق لا بالقبيح لا بالزينة	في بلادك و القهر عليك غزير *
و انت مرمي عايش كالبهيمة الشينة	أرضك مالكيها أولاد الخنزير *
عديانك و عديان محمد شفيعنا	املجمينك مثل العود بالدير *
انسيت حتى أمك هي أرضك لحينة	انسيت دينك وانسيت أهلك والغير *
و انت عايش في الذل و لغبينة	الكافر قدامك عايش في الخير *
باش تحيى و تشرف أرضك لعزيزة	قوم من نومك حتى انت غير *
راها حاجة في الدنيا ما اتواتينا	جاهد يا عبد و كونك عزيز *
و قيمة لوطن لمحرر يا أخينا	لو تعلم قيمة الجهاد كيفاش اتصير *

و كذلك قصيدة الشاعر الشعبي عبد القادر بن أحمد المجاجي التي يحتج فيها على القوانين الفرنسية الجائرة، حيث ينبه إلى خطورتها، و يحذر من انعكاساتها على الثقافة الجزائرية، حيث يقول :

ببرية قال جات من عند الفسيان	جانا ذاك اليوم مرسل القايد
تتلطف و تقول استر يا رحمان	كي قراها بقات الأمة تتوحد
حكم شرع جديد ما راته لعيان	قالوا جات اليوم قوانين جدد
راها الكلمة اليوم للعسكر نيشان	اللي يحب العيش لفرنسا يسجد
لا طلبة تفتي بآيات القرآن	ما ابقى لا اخليل لا شرح مقيد
عاد الكاغط يرسلو لك بن ديا ²⁷	المفتي و لفتيه مجمرهم ابرد

و هكذا تحدث الشعراء الشعبيون عن الدور الثقافي في حياة الجماعة والوطن فجاءت قصائدهم تعكس البعد الثقافي الراسخ في نفوسهم من أجل نصرته الإسلام ، ومحاربة الكفر ، ناهيك عن استرجاع الأرض المسلوقة ، مما يدفع إلى الاعتقاد بأن معظم الانتصارات التي حققها الشعب الجزائري ضد الاستعمار الفرنسي كانت بدافع ثقافي وروحي و عقائدي .

الهوامش :

- 1 - انظر : ابن منظور ، لسان العرب ، مادة ثقف
- 2 - دنيس كوش : مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية ، ترجمة منير السعيداني ، مركز دراسات الوحدة العربية ، ط 1 ، بيروت 2007 ، ص 16
- 3 - المرجع نفسه ، ص 17-18
- 4 - دنيس كوش : المرجع نفسه ، ص 31
- 5 - توفيق الحسيني عبده: الموسوعة الإفريقية ، الأنثروبولوجيا ، المجلد (4) ، معهد البحوث و الدراسات الإفريقية . جامعة القاهرة ، 1997 ، ص 16
- 6 - ابن منظور : لسان العرب ، مادة قوم
- 7 - إبراهيم مصطفى و آخرون : المعجم الوسيط ، مجمع اللغة العربية ، ط 4 ، جمهورية مصر العربية 2004 ، ص 761
- 8 - فادية المليح حلواني : تجليات الثقافة في الشعر العربي المعاصر ، مجلة العلوم الإنسانية ، ع 8 ، كلية الآداب و العلوم الإنسانية ، جامعة دمشق ، ص 2 .
- 9 - لإدوارد سعيد : الثقافة و المقاومة ، حاوره دافيد بارسايمان ، ترجمة علاء الدين أبوزينة ، بيروت ، دار الآداب و النشر و التوزيع 2006 ، ص 143
- 10 - من الكلمة التي القاها الدكتور يوسف الحسن في مؤتمر اتحاد عام الكتاب و الأدباء العرب ، المنعقد فب الجزائر من 12 لغاية 14 فبراير 2017 و مخصص لموضوع " تجليات ثقافة المقاومة في الأدب العربي المعاصر "
- 11 - محمد زيمان : مقال بعنوان : الإبراهيمي و نضال الكلمة : مقاومة الاستعمار نموذجا ، أعمال مؤتمر فيلادلفيا الدولي العاشر ، المؤتمر العلمي لكلية الآداب و الفنون 25-28 أبريل 2005 ص 354
- 12 - إسماعيل العربي : الدراسات العربية في الجزائر ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر 1986 ، ص 10-11 .
- 13 - يونس درمونة : المغرب العربي في خطر ، دار الطباعة الحديثة 1965 ، ص 30
- 14 - من الأساليب المبتكرة لمحاربة اللغة العربية و القضاء على الدين الإسلامي ، قرار 1938 ، و المعروف بقرار " شوطان " نسبة إلى واضعه و هو وزير داخلية فرنسا في ذلك الوقت و مما نص عليه القرار هو : " اعتبار اللغة العربية لغة أجنبية ، و لا يجوز تعليمها في مدارس التعليم ، سواء أكانت حكومية أم شعبية إلا على هذا الأساس ، أي أنها أجنبية " .
- 15 - انظر التلي بن الشيخ : دور الشعر الشعبي الجزائري في الثورة 1830-1945 - ش و ن ت ، 1983 ، ص 15
- 16 - عبد الحميد بورايو : موقف المؤسسة الرسمية من الثقافة الشعبية بالجزائر ، مقال منشور بالمجلة العربية للثقافة ، عدد خاص حول المأثور الشعبي في الوطن العربي ، مجلة نصف سنوية ، مارس - سبتمبر السنة الثامنة عشرة ، العدد 36 ، 1999 ، ص 266
- 17 - عبد الرحمن الجيلالي : تاريخ الجزائر العام ، ج 4 ، دار الثقافة ، بيروت 1980 ، ص 285
- 18 - إيفون تورين ، نقلا عن أحمد بن نعمان ، التعريب بين المبدأ و التطبيق ، ش و ن ت ، الجزائر 1981 ، ص 175
- 19 - أبو القاسم سعد الله : الحركة الوطنية الجزائرية ، ج 1 1860-1900 - دار الغرب الإسلامي ، بيروت لبنان 2000 ، ص 57

- 20 - انظر قصيدة عبد القار الوهراني ، دخول الفرنسيين ، مجلة آمال ، عدد خاص بالشعر الشعبي ، العدد 4 ، نوفمبر - ديسمبر 1969 ، إصدار وزارة الثقافة و الاتصال ، الجزائر ، ص 74 .
- 21 - المرجع نفسه 74
- 22 - التلي بن الشيخ : دور الشعر الشعبي الجزائري في الثورة - 1830-1945-المرجع السابق ، ص 98
- 23 - المرجع نفسه ، ص 98
- 24 - عبد المالك مرتاض، أدب المقاومة الوطنية في الجزائر (1830-1962)، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر 2003، ص 85.
- 25 - عبد القادر خليف : الشعر الشعبي البوطولي و دوره في وحدة المجتمع الجزائري ، أعمال الملتقى الوطني حول مظاهر وحدة المجتمع الجزائري من خلال فنون القول الشعبية ، بتاريخ 13-14 أكتوبر 2002 ، منشوراتالمجلس الأعلى للغة العربية ، الجزائر ، د.ط ، د.ت ، ص 135
- 26 - ديوان الشعر الشعبي ، شعر الثورة المسلحة ، إعداد و تقديم أحمد حمدي ، منشورات المتحف الوطني للمجاهد ، ص 15
- 27 - جلول يلس و الحفناوي أمقران : المقاومة الجزائرية في الشعر الملحون ، ش . و . ن . ت ، الجزائر 1975 ، ص 100